

الاستعمار والتدمير المنهجي

قراءة في خيار المقاومة

إيمان شمس الدين

الاستعمار هو باختصار ممارسة هيمنة تهدف إلى السيطرة الجماعية على الجغرافيا السياسية لأمة من الأمم، وعلى مواردها الطبيعية والبشرية، وبموجب الاستعمار تفقد الأمم المستعمرة سيادتها. وبموازاة ذلك أُسست منظمة الأمم المتحدة عام ١٩٤٥م، ونظام الوصاية الدولي المنبثق عن ميثاق الأمم المتحدة القاضي بتحميل الدول المهيمنة مسؤولية إدارة من يقع عليهم الاستعمار وضمان حقوقهم في أفق مبدأ تقرير المصير. هذا من الناحية القانونية، أما من الناحية التاريخية والسياسية، فلقد جاء هذا الموقف نتيجة الحرب العالمية الثانية التي انتهت بإقرار نظام عالمي جديد، بحسابات وشروط مختلفة.

وعل هذا القرار يحمل دلالات مهمة في شرعنة الاستعمار، بل ويؤسس له شروطا ظاهرية ومحمولات إيجابية، تشي لقارئ نصوصه بوجود بعد إيجابي في الاستعمار من حيث الإدارة، دون تحديد آلياتها ولا تشخيص مصاديقها، ومن حيث حفظ الحقوق، المفهوم الأكثر التباسا في الذهن الغربية وفلسفتها، خاصة في البعد المعرفي كمصادر للمعرفة وقيمة هذه المعرفة.

والدليل على هذا الالتباس التجارب الاستعمارية تاريخيا، واشتراكها جميعا بأسس مخالفة لتوصيات الأمم المتحدة كالعادة.

فغالبا طبيعة الاستعمار وفق التجربة التاريخية، خاصة تلك التي وقعت في حدودنا المشرقية العربية والإسلامية، اتسمت بعدة سمات أهمها:

- طبيعة الاستعمار تدميرية، متوحشة، مركزيتها عسكرية، وطبيعتها استعلائية إقصائية، لا وزن إنساني فيها لأصاحب الأرض، ولا حق معتبر، بل منتهك الحقوق، ومنتقص في قيمته الإنسانية، وأي خيار مقاوم في وجه هذا المحتل، سيواجه بذات الروح الاستعلائية، فالاستعمار لا يرى أي حق للمُسْتَعْمَر في رفضه للاحتلال ومواجهته بالحق الطبيعي في المقاومة.

- عادة أي مستعمر منهجيته الغالبة عليه هي التدمير والقتل، لإشاعة نوع من الإرهاب النفسي، وتهيج المخاوف الفطرية على الحياة، دون دخالة للعقل في ضبط معيار الخوف وفق حدود عقلية، تضبط إيقاع الفرد وخياراته وقراراته وسلوكه، فيقمع تحت تهديد القتل والتدمير والاستبداد، أي محاولة تغيير ومواجهة، ومقاومة، فهو يرفع كلفة الفعل المُقاوم، لتضييق الخناق عليه كخيار طبيعي في مواجهة الاحتلال.

لذلك هو دوما ما يسعى في مواجهة مفهوم المقاومة الشرعية لحرف دلالاتها وتشويه ممارساتها، من خلال خلق فضاءات أخرى يُمارَس فيها حمل السلاح بطريقة لا تنتمي للفعل المقاوم، لكن المحتل يحاول ربط هذا الفعل المُشوّه الهجين، بدلالة سلبية يروج لها إعلاميا، كما فعل في ربط الجهاد والمقاومة بداعش وغيرها من الحركات المتشددة.

- هذا لا يعني أن الاستعمار العسكري لم يمهّد للاستعمار الثقافي في ذلك الوقت، حيث شهدنا اهتمام المستعمرين ولضمان هيمنتهم الاستعمارية، اهتمامهم بتدمير التعليم الموجود، واستبداله بمنهجهم التعليمي الذي يبدأ باللغة، وهي النقطة المركزية في الهوية، لينتهي بتغيير البنية المعرفية ومصادر ها. وكان ينشط في القرى التي لا وجود لمدارس تعليمية فيها، ليبنى فيها هذ المدارس، ويستقطب إليها الأطفال، وهم الأسهل في التشكيل وفق إرادة المُستعمر. ولعل لمحمد أركون¹ قصة عايشها في هذا الصدد، منذ دخوله للمدارس الفرنسية في بلاده المحتلة، إلى ذهابه إلى فرنسا لاستكمال دراساته العليا، ومدى تأثره المعرفي بالمدرسة الغربية.

- وتكرس هذا المنهج في الاستعمار الثقافي، بعد فشل الاستعمار العسكري نتيجة المقاومات الشعبية التي استطاعت انتزاع حريتها بدمها وسيفها، إلا أن الاستعمار عاد إليها بما سمي لاحقا في الثمانينيات من القرن العشرين بـ "نظرية ما بعد الاستعمار Post-colonial".

theory –

وهذه البَعْدِيَّةُ لَعْوِيًّا تشي في دلالاتها الظاهرية بانتهاء الاستعمار، كما يراد لها أن تدل عليه، لكنها في الحقيقة هي تأخذنا من الاستعمار العسكري، إلى الاستعمار الثقافي. ولكي تستمر هيمنة الدول الاستعمارية على مقدرات هذه الدول، لكنه دون احتلال جغرافي، وتوفيراً لكلفة بناء المستوطنات، و لدرء ارتفاع منسوب غضب شعوبها نتيجة الارتفاع الكبير في عدد القتلى من العسكر المحتلين، فقامت بتعزيز تقويض سيادة الدول، وزادت من سياسة التّدخل في شؤونها الداخليّة، تحت مسميات وعناوين كثيرة، منها على سبيل المثال "الاتفاقيات الأمنية" التي شرعت قيام قواعد عسكرية متقدمة في منطقتنا، هي أذرع قتال عسكري للتدخل السريع إذا ما اضطر الأمر، أو تهددت مصالحها الاستراتيجية، وسارت الأمور عكس رغبتها وتطلعاتها للمنطقة. فمثلا ظهور الأمم المتحدة رافقه نظام "بروتن وودز" الذي أسس لمرحلة جديدة، فهو نظام نقدي صُمّم لتعزيز الاستمرار الاقتصادي الدولي، وتسهيل التبادلات التجارية بين الدول، من خلال تثبيت الصرف بين العملات الرئيسية والدولار الأمريكي، والذي كان

¹ مفكر ومؤرخ وعالم دراسات إسلامية وفيلسوف حدائحي وباحث جزائري، ولد في الجزائر وعاش في فرنسا، ودفن في المغرب، آمن بما وراء الحداثة، لكنه شعر بالإحباط من نظرة الأوروبيين إليه كمسلم تقليدي كانت زاوية النظر لديه في قراءة الإسلام تنطلق من تأثره بالنظريات الغربية، فهو ينتقد العقل الإسلامي بلسان فرنسي، وبعقل استشراقي غربي، إلا أنه كان له دورا بارزا في إثراء الفكر والحوار والجدل، وكشفه لثغرات هامة في قراءة النص الديني، إلا أن زواياه في قراءة النص كانت تنطلق من زاوية استشراقية تسقط التجربة الغربية الدينية على واقعنا الإسلامي.

مرتبطا بسعر الذهب. لكن النظام رهن دول عالم الجنوب لضرب آخر من السيطرة، وهو ما أسفر عن نمط جديد للاستعمار، والذي يقوم على الهيمنة الناعمة غير المباشرة.

فالاستعمار العسكري بعد بروز القوة الأمريكية، أجبر قوى الاستعمار القديم كبريطانيا وفرنسا، للجوء إلى طرق غير مكلفة، ولا يتوفر على غطاء مقنع من القانون الدولي، لذلك لجأت هذه الدول مكرهة إلى مبدأ "الاستعمار غير المباشر"، وهو استعمارا مناورا ومتخفيا بأثواب الثقافة والفلسفة والاقتصاد والسياسة، يقوم على تأويل فاسد للقانون الدولي، واعتماد مبدأ لعبة الأمم.

- وعادة تقييمات المُستعمر للجغرافيا المُستعمرة واستراتيجياته التي يضعها لمواجهة المقاومة فيها، أو لكيفية تمكين استعمارها أكثر، عادة ما تقع في أخطاء قاتلة، ومع ذلك هو يكررها دوما، ويقع ضحية خلله المعرفي وقراءته الخاطئة للمنطقة والمجتمع المُستعمر، لأن انطلاقة المعرفة في التقييم ورسم الاستراتيجيات، وقراءة الآخر المُستعمر، تنطلق من مصادر للمعرفة ذات بعد مادي تجريبي حسي استعلائي استعماري فقط، حتى في تقييمه لهذه المجتمعات ولمقاومتها. لذلك نجده يعتمد كثيرا على التدمير والقتل والتهجير، لفهمه المادي للإنسان، وطبيعته.

طبعا نجحت استراتيجيته التدميرية في الماضي نوعا ما في إرضاخ الشعوب والدول لأسباب كثيرة ليس هنا محل ذكرها، لكن مع التقادم فشل الاستعمار دوما تحت ضربات المقاومة غالبا والمقاومين، هذا الفشل يأتي في أحد أسبابه المهمة، غياب مصدر معرفي مهم متعلق بالسماء والعقل، وهو البعد المعنوي في المعركة وفي البنية العقلية والروحية للإنسان العربي والمسلم في المنطقة (القرآنية، العقد، القومية، التاريخية، النقلية، القبلية وسمات القبيلة المهمة في هذا الصدد) هذه أغلبها من مُحدّات الهوية العَدِيَّة.

وقفه مع البدايات:

كانت الصراعات منذ القرن التاسع عشر قائمة على التوسع المنهجي جغرافيا خاصة بعد سقوط الدولة العثمانية والتسابق بين القوى العظمى على وراثة الإرث الجغرافي العثماني، خاصة تلك الجغرافيا الغنية من جهة بالثروات ومن جهة أخرى بمواقع استراتيجية رابطة ومحورية في المسارات التجارية هذا فضلا عن الاهتمام بنقاط القوة التي تجمع هذه الجغرافيا وأهمها على الإطلاق الدين والعروبة والأوطان.

ولتحقيق استراتيجيات نابليون التوسعية تم توظيف التالي:

- الخطابات الدينية .

- استحضار تاريخ الصراعات خاصة بين الصليبيين والمسلمين.
 - توظيف الجغرافيا في ضرب نقاط قوتها الخاصة بمنطقتنا.
- كان الخوف يكمن في استمرار تلاقي القوة القومية العروبية خاصة مع القوة الدينية الإسلامية خاصة، واستمرار الجمع بين هاتين القوتين يشكل مركز قوة ردع لكل محاولات التوسع والهيمنة.
- هذا فضلا عما تشكله الجغرافيا الممتدة من النيل إلى الفرات من ثراء تمثل في:
- ثراء معرفي تاريخي متراكم شديد حضارات عدة عكست التنوع العرقي والديني والثقافي في هذا الامتداد.
 - ثراء مادي غني بالمياه والموانئ وطرق التجارة والثروات المعدنية بما فيها النفط.
 - ثراء هوياني قائم على مشتركات غزيرة في الهوية تمثل ثقل وقوة جامعة في هذه المنطقة، قادرة دوما على بناء حسور رابطة بين الشعوب، وهو ما يخشاه دوما أي مشروع توسعي استعماري .
- فجاء الاستعمار بعد سقوط الدولة العثمانية، ليعزز توسعه الجغرافي بخطوة أولية تضمن له ضرب الاتصال العروبي الاسلامي، وتعد له الطريق للدخول والخروج لمنطقتنا كيف ما شاء ووقت ما شاء.
- وكانت هذه الخطوة باصطناع كذبة دينية إنجيلية توراثية اسمها وطن اليهود، وحقهم التاريخي في أرض كنعان.
- وكان أول من التفت إلى هذه الفكرة هو "نابليون بونابارت"² حيث يقول المفكر محمد حسنين هيكل في كتابه " المفاوضات السريّة بين العرب وإسرائيل":
- "إن بذور المقدّسات: المحرّمات العربية تجاه الصهيونية وإسرائيل تعود في بداياتها وأصولها إلى القرن التاسع عشر".
- ثم لفت هيكل إلى أن "طوال القرن التاسع عشر كان العالم مشغولاً بأربع قضايا: ظاهرة الوطنية، وظاهرة التسابق إلى المستعمرات والتنافس عليها بين القوى الأوروبية، والمسألة الشرقية أي التربّص بإرث الخلافة العثمانية، والمسألة اليهودية، فقد كان اليهود هدف عداة استفحل خصوصاً حول تواجد كثافة الوجود اليهودي في شرق أوروبا وروسيا ووقتها كان 90 بالمائة منهم يعيشون على تخوم ما بين روسيا وبولندا".

² قائد عسكري سياسي فرنسي إيطالي الأصل، بزغ نجمه خلال أحداث الثورة الفرنسية، وقاد عدة حملات عسكرية ناجحة ضد أعداء فرنسا خلال حروبها الثورية.

واستطاع نابليون - حسب هيكل - الربط والتوليف بين المسائل الأربع وقد التقط في البداية آخرها وهي المسألة اليهودية".

وكانت حملة نابليون على مصر التي سميت حملة النيل كما يرى هيكل تستهدف هدفين:

"احتلال مصر كبادرة لعملية إرث الخلافة. والزحف منها إلى فلسطين والشام. فنابليون لم يكن ينظر إلى مصر وحدها وإنما كان يراها في اتصال غير قابل للانفصال مع السهل السوري الذي يشكّل معها حجر زاوية قائمة تحيط بالشاطئ الشرقي الجنوبي للبحر المتوسط، وهذه الزاوية القائمة بزلعها الجنوبي في مصر تمدّ تأثيرها بالعرض إلى كل الساحل الشمالي لأفريقيا وبالطول إلى الجنوب حتى منابع النيل، ثم أنها بزلعها الشمالي في سوريا تلامس حدود بلاد ما بين النهرين وشبه الجزيرة العربية والخليج وحتى طرق الاقتراب البري والبحري إلى فارس والهند".

واختياره لتلك المنطقة يعود لذكرياته التاريخية في الحرب الصليبية الإسلامية، وما شكلته هذه المنطقة الجنوبية سواء من خطر خارجي أو من الإسلام والعروبة في مصر وسوريا - ضلعي الزاوية -، اللذين سبق لهما خلال الحروب الصليبية أن صنعا قوة ذاتية تتشجّع على الانفلات من قبضته.

وهو ما يتطلب زراعة كيان لا عروبي ولا إسلامي، تابع لفرنسا وفي ذات الوقت مناهض للعروبة والإسلام فيفصل ثقل القوة عن بعضه ليصبح بونابرت أكثر قدرة على التحكم والهيمنة وتطويع المنطقة لإمبراطوريته الحالية.

لذلك وظف نابليون لهذا الهدف الخطاب الديني في ورقته اليهودية التي وزعت على كل اليهود كنداء منه إليهم حيث قال:

"من نابليون بونابرت القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية في أفريقيا وآسيا إلى ورثة منطقة فلسطين الشرعيين

أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد، الذي لم تستطع قوى الاحتلال والطغيان أن تسلبه اسمه ووجوده القومي، وإن كانت قد سلبته أرض الأجداد فقط.

إن مراقبي مصائر الشعوب الواعين المحايدين - وإن لم تكن لهم مقدرة الأنبياء مثل إشعياء ويوثيل - قد أدركوا ما تنبأ به هؤلاء بإيمانهم الرفيع أن عبيد الله (كلمة إسرائيل في اللغة العبرية تعني أسير الله أو عبد الله) سيعودون إلى صهيون وهم ينشدون، وسوف تعمهم السعادة حين يستعيدون مملكتهم من دون خوف.

انهضوا بقوة أيها المشردون في التيه. إن أمامكم حرباً مهولة يخوضها شعبكم بعد أن اعتبر أعداؤه أن أرضه التي ورثها عن الأجداد غنيمة تقسم بينهم حسب أهوائهم.. لا بدّ من نسيان

ذلك العار الذي أوقعكم تحت نير العبودية، وذلك الخزيّ الذي شلّ إرادتكم لألفي سنة. إن الظروف لم تكن تسمح بإعلان مطالبكم أو التعبير عنها، بل إن هذه الظروف أرغمتكم بالقسر على التخلّي عن حقكم، ولهذا فإن فرنسا تقدّم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل، وهي تفعل ذلك في هذا الوقت بالذات، وبالرغم من شواهد اليأس والعجز.

إن الجيش الذي أرسلتني العناية الإلهية به، ويمشي بالنصر أمامه وبالعدل من ورائه، قد اختار يروشلايم مقراً لقيادته، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة التي استهانت طويلاً بمدينة داود ملك إسرائيل وأذلتها.

يا ورثة فلسطين الشرعيين..

إن الأمة الفرنسية التي لا تتاجر بالرجال والأوطان كما فعل غيرها، تدعوكم إلى إرثكم بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء.

انهضوا وأظهروا أن قوة الطغاة القاهرة لم تخدم شجاعة أحفاد هؤلاء الأبطال الذين كان تحالفهم الأخوي شرفاً لأسبرطة وروما، وأن معاملة العبيد التي طالت ألفي سنة لم تفلح في قتل هذه الشجاعة.

سارعوا، إن هذه هي اللحظة المناسبة - التي قد لا تتكرّر لآلاف السنين - للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم، تلك الحقوق التي سلبت منكم لآلاف السنين وهي وجودكم السياسي كأمة بين الأمم، وحقكم الطبيعي المطلق في عبادة إلهكم يهواه، طبقاً لعقيدتكم، وافعلوا ذلك في العلن وافعلوه إلى الأبد".

فكان السعي لأسباب عدة أهمها:

- التخلص من اليهود في أوروبا لدورهم التاريخي في مناهضة المسيحية، وفي الهيمنة الاقتصادية وهو ما يشكل دوماً خطراً وجودياً على تلك الدول.

- الهيمنة والتوسع المستديمين، عبر فهم الجغرافيا واللعب على نقاط قوتها وضعفها.

- تفتيت نقاط القوة وتهشيمها لتتحول إلى نقاط ضعف، من خلال خلق كيان يهودي قومي ديني قادر على تنفيذ خطط الهيمنة والاستعمار دوماً، وضمان بقاء هذه المنطقة الغنية بالثروات المادية والمعنوية تحت نفوذ الغرب .

انتهت حقبة الاستعمار المباشر العسكري من قبل الغرب بعد اتفاقية "سايس بيكو" التقسيمية، لكنها زرعت في منطقتنا استعماراً من نوع آخر:

- الكيان الصهيوني الذراع الاستعمارية المتقدمة للغرب، حيث التقت رغبات الغرب التوسعية والهيمنة على الثروات، مع خيالات دينية توراتية لوطن قومي لليهود.

- الاستعمار الثقافي الذي يحفر عميقا بشكل ناعم في مفاهيم الإنسان ومسلّماته، ويعمل على مسحها، وبرمجتها من جديد وفق محددات استراتيجيّة معرفيّة ترسم معالم هويّة أخرى خارجة في بنيتها الفلسفيّة عن مصدرية السماء والعقل في التشريع والتقنين، وبالتالي إدخال الفرد في متاهات لا جذور لها معرفيا، تقوم على المادية والنسبية في رؤيتها الكونية. وهذا للتمهيد الناعم للقبول بالذراع الاستعماري المزروع في قلب المنطقة، فلسطين، الزاوية التي كانت تاريخيا تصل بين العروبة والاسلام.

غزة - لبنان وخيار المقاومة:

وبعد حرب غزة التي أسقطت ورقة التوت عن الغرب، وكشفت حقيقة المؤسسات الدولية وقوانينها وأصالح من وضعت، ومن هو المعني في خلفياتها المعرفية بالإنسان وتعريفه، باتت تتكشف مجددا أفكار الاستعمار المكتنزة في الشخصية الغربية، وأعني بها هنا الحكومات، وهنا لا أرفع المسؤولية عن الشعوب الغربية، رغم دعم أغلبها لغزة، كونها هي من يذهب إلى صناديق الاقتراع ويختار هذه الحكومات، التي تمارس كل أنواع الاحتيال والتدليس في سبيل مصالحها الرأسمالية، وقيمها الليبرالية، والعلمانية، المترابطة بين التطرف والاعتدال.

هذا الفكر الاستعماري الذي اختبأ خلف قناع الحريات والعدالة والديموقراطية، والمؤسسات والقوانين الدولية، ظهر كوحش ماردي بعد حرب غزة، وكشف قناعه الاستعماري ووحشيته، بتمويل القتل والتدمير مجددا بكل أنواع السلاح والتكنولوجيا التي توصل إليها.

فكان الخيار الأسلم في المواجهة هو المقاومة العسكرية، مع معرفة فساد تأويل القوانين الدولية، وتمييعها، وقلب دلالاتها لتخدم إرادة الدول الكبرى الحليفة والراعية للكيان الصهيوني، كأحد أذرعها الاستعمارية المهمة في منطقتنا الغنية بالثروات المادية، خاصة الطاقة، والثروات الثقافية المتنوعة في الهوية والانتماء.

المقاومة المسلحة كحق أممي

- اعترفت الجمعية العامة للأمم المتحدة مراراً بحقوق الشعب الفلسطيني غير القابلة للتصرف مثل قرارها رقم 3236 لعام 1974 بند 1 و2 وقرارها رقم 17/39 لعام 1984 بند 3 وقرارها رقم 149/49 لعام 1995 في البند 1 و3 وبحقه في استرجاع حقوقه بالوسائل المتاحة كافة بما في ذلك الكفاح المسلح حسب قرار الجمعية العامة رقم 3236 لعام 1974 بند 5 رقم 17/39 لعام 1984 بند 2، كما ان القانون الدولي ومنذ قيام الامم المتحدة قد حظر اللجوء الى القوة المسلحة او التهديد بها في اطار العلاقات الدولية غير أنه اجاز اللجوء إلى القوة بأشكالها

المختلفة في حالات الدفاع الشرعي ضد الاحتلال، بوصفها وسيلة لممارسة حق تقرير المصير والوصول الى الاستقلال الوطني.

- أكدت الجمعية العامة للأمم المتحدة في قرارها رقم (3246) الصادر في 1974/12/14 على شرعية حق الشعوب في الكفاح المسلح في سبيل تحريرها من الاحتلال، وذهب إلى "أن أي محاولة لقمع الكفاح المسلح ضد السيطرة الاستعمارية والأجنبية والأنظمة العنصرية هي مخالفة لميثاق الأمم المتحدة ولإعلان مبادئ القانون الدولي الخاصة بالعلاقات الدولية والتعاون بين الدول، ولإعلان العالمي لحقوق الإنسان"، وقد أكدت الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب الصادرة في عام 1998 في المادة الثانية على أنه لا "تُعد جريمة حالات الكفاح بمختلف الوسائل، بما في ذلك الكفاح المسلح ضد الاحتلال الأجنبي، والعدوان من أجل التحرر وتقرير المصير."

- هذا فضلا عن أن قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة 3379، الذي اعتمد في 10 نوفمبر 1975 بتصويت 72 دولة بنعم مقابل 35 بلا (وامتناع 32 عضواً عن التصويت)، يحدد القرار «أن الصهيونية هي شكل من أشكال العنصرية والتمييز العنصري». وطالب القرار جميع دول العالم بمقاومة الأيديولوجية الصهيونية التي حسب القرار تشكل خطراً على الأمن والسلم العالميين.

ومع ضعف قدرات الدولة العسكرية لأسباب عدة في الدفاع عن نفسها أمام أي هجوم أو احتلال همجي، يصبح من حق الشعب الدفاع عن نفسه بالكفاح والمقاومة المسلّحة، لدرء العدوان، ومنع احتلال الأرض.

وما جاهزية المقاومة في المواجهة، إلا دليل على حجم الوعي المسبق لطبيعة هذا الغرب وبنيته المعرفية، والفهم التاريخي لمنظومته الفكرية وتطورها وإلى أين وصلت، وآليات مواجهتها، وأدوات هذه المواجهة، والخيارات المتاحة لسياق كل حدث ومواجهه، وكيفية تحقيق الجهوزية الكاملة وفق القدر والاستطاعة، لمواجهة تتناسب في وزنها ونوعها مع سياق الحدث، وارتداداته، ومكاسبه، وأهدافه، وتداعياته.

وكانت نواة هذه الخيارات هي المقاومة، وليست فقط المقاومة العسكرية المُشرّعة أمميًا في وجه الاحتلال والاعتداء، خاصة وفق التجربة التاريخية والميدانية، أن قوى الاستعمار لا يمكنها الرضوخ إلا بمنطق القوة المتمثل بالمقاومة المسلّحة، والتي أبدعت فيها المقاومة التجهيز والتخطيط والتنفيذ إلى الآن، فالمعركة وفق الموازين المادية لا تكافؤ فيها بين المقاومة والكيان الصهيوني، لكنها في البعد الاستراتيجي المعنوي هناك تفوقا ملحوظا وبارزا للمقاومة، وهو البعد الأهم في المعركة والأكثر فاعلية في التأثير بمجرياتها ونتائجها، "فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ"³. هو بعد لا يملكه العدو، وإن امتلكه فهو مُشَوَّهٌ ومُنْحَرَفٌ عن السبيل والصراف المستقيم، كون الصهاينة دوما ما يلجؤون في خطاباتهم للنص التوراتي، ولا داعي للخوض في مصداقية كل ماورد فيه.

المُستَعْمِر والتدمير المنهجي:

للاستعمار سمات عامة مشتركة وللكيان الصهيوني سمات أيضا خاصة، والسمات العامة تم ذكرها في بداية المقال، وأما السمات الخاصة بالكيان الصهيوني فأهمها:

- تدمير منهجي للبنى التحتية والمباني السكنية، وما عقيدة الضاحية التي طورها "غادي آيزنكوت" رئيس الأركان العامة الإسرائيلية السابق، التي تقوم على الردع باستخدام القوة المُفْرطة، والتدمير الشامل، وقتل المدنيين بارتكاب مجازر وإبادات جماعية لكسب المعركة، إلا دليل قطعي على هذه السمة البارزة.
- تدمير الهوية التاريخية للمنطقة، بمسح قراها القديمة، ومساجدها الأثرية، وتراثها الأثري، كنوع من مسح الذاكرة التاريخية للأجيال القادمة لتضعيف روابطهم بالمكان والزمان والتاريخ، والقدرة على بناء هوية مغايرة للواقع لتلك الممتدة بالتاريخ وبالمرتبطة بحكايته وتراثه وأثاره الشاهدة عليه.
- استهداف الكيان الطبي، من مسعفين وأطباء، ومستشفيات، وكل ما له صلة ووظيفة في الحرب يتعلق برعاية الإنسان وحفظ حياته وكيونته المتعلقة بالجسد، لإيقاع أكبر عدد من الشهداء، ومن ذوي الإعاقة، الذين يصبحون معطلين، وعاجزين عن أي خيار مستقبلي في مواجهة هذا العدو المتوحش، أو يصبحون عالة على مجتمعهم الذي يعاني بالأصل نتيجة الحرب.
- استهداف دور العبادة، سواء المساجد أو الكنائس، والتي لها علاقة بهوية الإنسان وذاكرته الدينية، وهذه تأتي من عقيدة الصهيوني، الذي لا يرى حقيقة دينية سوى يهوديته، فلا يقيم أي احترام وتقدير للأديان الأخرى.
- استهداف المدنيين الحاضنين للمقاومة من حيث العدة والعتاد والعديد والثقافة، لمعاقتهم على هذا الخيار، ولتأليبهم على المقاومة لتجفيف منابع الدعم والحماية، ولتغيير عقيدتهم المقاومة، إلى عقيدة استسلام للعدو الصهيوني، والخضوع لإرادته.

³سورة الأنفال، آية 17

- التعتيم الكامل على الخسائر التي يتكبدها العدو الصهيوني نتيجة ضربات المقاومة، لعدم التأثير على معنويات وصمود المجتمع الصهيوني الهش، وللتأثير على معنويات البيئة الحاضنة للمقاومة، ولتقزيم الفعل المقاوم وأثاره وإنجازاته، وهو ما يشيع أجواء اليأس من هذا الخيار والافتناع بعدم ناجعيته في المواجهة.

لكن رغم هذا التوحش وظواهره، إلا أنها وإن نجحت في حقبة زمنية في بدايات الاحتلال الصهيوني للمنطقة، لكنها مع التقدم كما أسلفنا، ومع تطور الفعل المقاوم وقدراته، وفاعليته الميدانية، فإن كل هذه التوحش يعجز فيه العدو في عصرنا الراهن عن تحقيق أهدافه، وعن إجبار خصمه في المعركة على رفع راية الاستسلام، والرضوخ لشروطه المذلة، بل أمام الثبات والقدرة الميدانية، وتكبده خسائر لا يتحملها، يلجأ العدو مؤخراً ويهرول ليجد له مخرجا سياسيا يساعده النزول عن الشجرة بأقل الأضرار.

فقد يمتلك العدو القوة العسكرية والتقنية، لكنه لا يمتلك القدرة والإرادة، أو لا تُحوّل هذه القوة من قبّله إلى شيء مؤثر في خيارات وقرارات المقاومة. فامتلاك القوة ليس بالضرورة يعني امتلاك القدرة، بينما امتلاك القدرة مع قوة متواضعة، يحقق للمقاومة تفوقا استراتيجيا.

وقد تكون المقاومة أضعف ماديا من العدو من حيث القوة والتقنية، ولكنها تمتلك القدرة في توظيف ما تملكه من قوة وقدرات وإرادة فاعلة في الميدان، في استخدامها بشكل مؤثر ضد العدو، لتؤثر في خياراته وقراراته العسكرية والسياسية، فيكون مبدأ التفاوض بالنار يفشل قدرات العدو على فرض شروط في الميدان السياسي، عجز عن تحقيقها في الميدان العسكري، رغم قوة التدمير والقتل التي يمارسها على المدنيين، على الحجر والبشر والتاريخ والتراث.

فقدرة المقاومة كبيرة على ضرب نقاط الضعف في البعد المادي الذي يتفوق فيه العدو، وتعطيل تحقيق الأهداف بالصبر والثبات، بل والانتقال بعد ذلك إلى مرحلة الإيلام، التي كثفت فيها المقاومة من الضرب بمطرقة القدرات العسكرية المُكثّفة نوعيًّا، بشكل تدريجي من حيث القدرات، ومن حيث الأهداف الاستراتيجية في عمق الكيان المحتل.

والمقاومة نجحت في ذلك من خلال عدة نقاط قوة ركانزية أهمها:

- ما وصفه المفكر السياسي الأميركي جوزيف ناي "الذكاء السياقي"، وهو القدرة على استيعاب ظروف الزمان والمكان والإمكان، وما يترتب عليها من ترتيب الأولويات، واختلاف الواجبات، ومراتب المسؤوليات. وتجلّى ذلك في كل مراحل الصراع، وخاصة بعد تقجير أجهزة النداء، واغتيال القيادات من الصف الأول والثاني، والوصول إلى اغتيال الأمين العام والقائد الأعلى للمقاومة، السيد الشهيد حسن نصر الله.

- الغموض الاستراتيجي: في سياق السياسة العالمية، فإن سياسة الغموض المتعمد (المعروفة أيضا باسم سياسة الغموض الاستراتيجي أو عدم اليقين الاستراتيجي) هي ممارسة حكومة أو جهة فاعلة غير حكومية تتمثل في أن تكون غامضة عمدا فيما يتعلق بجميع أو جوانب معينة من سياساتها التشغيلية أو الموضوعية. عادة ما تكون هذه طريقة لتجنب الصراع المباشر مع الحفاظ على موقف مقنع أكثر حزما أو تهديدا بشأن موضوع ما (على نطاق واسع، استراتيجية النفور من المخاطر الجيوسياسية). وهو ما مارسه المقاومة بشكل إبداعي خاص، يتناسب وحجمها كقوة مقاومة ضمن دولة.

- الثبات في الميدان، والاستراتيجية المتدرجة في المواجهة، التي تتناسب مع وزن ونوع الموقف العسكري، بما يحقق ضربات استراتيجية تسبب خسائر عسكرية واقتصادية للعدو، وتحدث إيلا ما لا يتحمله مع التقادم كيان العدو ولا مجتمعه الهش.

- التضليل المعلوماتي وبناء شبكة معلومات وهمية مُموّهة، تجعل العدو الصهيوني يقرأ الميدان وقدرات المقاومة، واستراتيجيتها بشكل بعيد عن الواقع، ولا يستند لمعلومات دقيقة، فيبني على أساسها ردود فعله العسكرية، بل يحدد وفقها أهدافه من المعركة، وهو ما ينكشف ضعفه ووهنه مع الاشتباك والتلاحم، ومن ثم الانكشاف والتراجع، وخفض مستوى التطلعات والأهداف.

المقاومة ومعركة الوعي:

ف نجاح المقاومة العسكرية في إفشال تحقيق العدو لأهدافه، ومنعه من تحقيق شروطه التي لأجلها وسع حربه على لبنان، وشنّها على غزة، وثبات هذا الخيار في الميدان رغم حجم الخسائر المادية، مع رصيده المعني الكبير في الثبات والصبر، واحتواء الضربات الموجعة وفق مبدأ الصبر والتوكل على الله، دليل على أن المقاومة خيار مطلوب بكافة أشكالها وفي كل أنواع المعارك، لا سيما معركة الوعي وهي أهم معركة يمكن للعدو أن ينجح في كنيها، لما يملكه من إمكانات تكنولوجية وإعلامية، وقدرات على الكذب والتدليس وتحويل الوهم إلى حقيقة، بل ما يملكه من أدوات داخلية بشرية إعلامية ومنظمات مدنية "NGO'S"، لذلك نجاح المقاومة العسكرية، يجب أن يتسق ويتوازى في ذات الوقت مع نجاح معركة الوعي، من خلال قوة منطق الاعلام المقاوم، وقدرته على التأثير بمصدقية وواقعية وموضوعية عالية، دون اللجوء للتتهريج تحت مسمى التحليل، ولا رفع الأسقف عاليا بعيدا عن الواقع، ولا من خلال التهويل لصالح المقاومة بما لا يتناسب مع واقعية قدراتها وخططها واستراتيجياتها.

إضافة إلى القدرة على استغلال هذه الحرب وما كشفتها من حقيقة عزّت من خلالها المنظومة الغربية، وازدواجية معاييرها، ووجهها الاستعماري الحقيقي المستمر بدعم إسرائيل، لدرجة أن يعبر رئيس وزراء فرنسا الأسبق "مانويل فالس" في مقال له لمجلة "لو بوان" قائلا: "إذا سقطت إسرائيل سقطنا معها"⁴.

ومن أكثر الدول الغربية التي دعمت إسرائيل هي دول الاستعمار القديم، وهي ذات الدول التي جعلت من أغلب الأنظمة العربية المُستعمَرة بشكل غير مباشر، أنظمة تابعة وظيفتها تمويل الحرب، ومنع أي مساعدة حقيقية لغزة ولبنان، بل وظفت هذه الدول العربية إعلامها، ليكون ذراع إسرائيل والغرب في الحرب الإعلامية في معركة الوعي، ونشر إشاعات حتى إسرائيل نفسها لم تتبناها، وتبنت أغلب ما تقوله الصحافة العبرية من تحليلات ومعطيات الميدان والعسكر والسياسة، دون حتى أدنى مهنية في نقل المقلب الآخر من الحدث المعني بالمقاومة ومنجزاتها الميدانية ضد العدو الصهيوني.

فالقدرة على استغلال ما سبق في بناء مشروع ثقافي ومعرفي تأسيسي وليس انفعالي عاطفي، يستطيع في حالة هذا الضعف الغربي المعرفي، أن يكشف أكثر الخلل في المنهج الغربي، ويقدم البديل الصالح والمتصالح مع ذاته ومع غيره، حتى لا تدخل الأجيال التي كانت متأثرة فكريا بالغرب في التيه، بعد إدراكها وجدانيا وحضوريا، ازدواجية القيم والمنظومة الغربية، وشعارات حقوق الإنسان، وعدم فاعلية المؤسسات الدولية عندما تكون الحرب في ساحة الإنسان العربي والمسلم، فتتلقفها رياح الأفكار، بين يمين متطرف ويسار متطرف، أي بين إفراط وتفريط.

فكما استطاعت المقاومة امتلاك القدرة على توظيف إمكاناتها في ضرب نقاط الضعف العسكرية في الكيان الصهيوني رغم فارق القوة المادي، يمكن لبيئة المقاومة ولكل من يؤيد خيار المقاومة لمواجهة الاستعمار بكافة أشكاله، أن يحول الإرادة والقدرة مع فارق الإمكانيات والأدوات والوسائل، يحولها إلى قوة قادرة على إعادة بناء المفاهيم ومنظومة القيم والمعايير بعيدا عن المنظومة الغربية، التي بدأت تغرق في وحل ازدواجية المعايير، والتأويل المفرط لصالحها الخاص مهما ارتُكِب من مجازر وتدمير من قبل الكيان الصهيوني، على حساب حيوات البشر ومستقبلهم، لمجرد أنهم وفق معاييرها لا ينطبق عليهم مفهوم الإنسان كمصاديق له، وهذا بذاته يتطلب وضع رؤية نظرية، وتطبيقية آنية للمعركة، واستراتيجية لما بعدها، وقد نفرد له ورقة خاصة قريبا.

⁴<https://www.lepoint.fr/video/manuel-valls-si-israel-tombe-nous-tombons-07-10-2024-4>

2572045_738.php#11